أظرف شعراء زمانه

للأستاذ / أحمد عبد السلام البقالي

كان من حسن حظي أن أدعى إلى الحفل الأول لجائزة الدولة التقديرية في الآداب لعام ١٩٨٢م. وكان الحفل المهيب الضخم الذي سلم فيه جلالة الملك فهد الجوائز للفائزين تجربة فريدة لجميع الحاضرين تركت أثرا عميقاً وباقياً في نفوسهم جميعاً.

كانت كلمة جلالة الملك فهد التي أشاد فيها بالعلم والعلماء، والأدب والأدباء، ورجا الحاضرين أن يُعرِّفوه، لا بـ " صاحب الجلالة " ولا بـ " الملك " بل " بخادم الحرمين "، ذات مفعول سحري نفاذ، ودخول مباشر إلى القلوب.

كان الحاضرون جميعاً يشعرون بأنهم هم المكرمون في شخصيات " السباعي " و" الجاسر " و" ابن خميس " الذين كان جلالة الملك فهد يسلمهم جوائزهم، وفي كلماته، وعلى وجهه السمح، علائم الاعتراف العميق بجميلهم على المملكة والعالم العربي.

وأعترف، وبكثير من الخجل، أنني لم أكن أعرف، إلا القليل، عن هؤلاء الثلاثة الكبار الذين أفنوا حياتهم في خدمة الفكر. بل إن أحدهم وصل إلى منصة التكريم مدفوعاً على كرسي دارج ...

وأثناء تلك الزيارة فقط، استطعت أن أطلع على بعض أعمالهم، وسير حياتهم العامرة بالكفاح والمنجزات، فأدركت مبلغ الخسارة التي تتكبدها الأمة العربية من جراء انقطاع التواصل بين أطرافها، وعدد الكنوز الفكرية، والعلمية، والأدبية التي تعمل في صمت دون أن تسعدنا فرصة كهذه لاكتشافها، ووضعها على قائمة مفاخرنا في زمن أصبح العربي فيه متهما بالبلادة، والتخلف، وقصر النظر، والعجز حتى عن توحيد كلمته للدفاع عن نفسه، وبأنه لا يملك عقلاً علمياً يؤهله للعيش في القرن العشرين !

● عكاظ عصرى ●

ولو لم يكن لهذه الالتفاته الكريمة من جلالة الملك فهد، وسمو الامير فيصل بن فهد، الرئيس العام لرعاية الشباب، من أثر إلاَّ إيقاظ هذا الشعور بالاعتزاز، والفخر، والنخوة العربية المفترى عليها لكفى.

إن هذا الجمع الهائل من رجال القلم في مكان واحد، وفي وقت واحد، ما كان ليذهب دون أن يترك أثراً .. كان تَجَمُّعهم أشبهَ ما يكون " بسوق عكاظ " عصرية لم تُقَم بالعراء، أو تحت الخيام، ولكن في أفخم الفنادق، وأضخم القاعات، وأحدث الأندية الأدبية .. وكان تعرف بعضهم على بعض، شخصياً، يتم على موائد الطعام، أو في قاعات الفنادق، أو داخل الطائرات ..

ولم يكن التعارف والتعرف يجرى بين أدباء بلد عربي وآخر فقط، بل كان

يتم كذلك بين أدباء البلد الواحد الذين لم يسبق لهم أن جالسوا بعضهم البعض، أو تعاشروا لمدة كافية تتيح للواحد أخذ صورة جيدة عن الآخر .. وأعترف هنا، مرة أخرى، أنني جالست (الدكتور المهدي بن عبود) والاستاذ (عبد العزيز بن عبد الله)، وهما من بلدي، في (المملكة العربية السعودية)، أطول مما جالستهما في (المغرب) وعدنا من المملكة، ونحن أشد قرابة، وأوثق مودة ..

● حتي على الأموات ●

ولم يتح للحاضرين التعرف على الأدباء الاحياء فقط، بل تجاوزه إلى بعض الأموات، وقد كان من حسن حظي شخصياً، أن سمعت لأول مرة أشعاراً للشاعر المغربي الراحل، (محمد بن ابراهيم) شاعر الحمراء ..

جمعتني الصدفة في قاعة (فندق البحر الأحمر) بجدة بجماعة من الأدباء فجرى الحديث عن الفكاهة في الشعر العربي الحديث فكان الاجماع على أن أظرف الشعراء في هذا الفن كانوا مصريين، وذلك بحكم أن (مصر) بلد النكتة الأصيل منذ عهد الفراعنة ..

إلا أننا فوجئنا بأكبر الجالسين سنا، وكان أديبا مصرياً كبير السن والحجم، فتوجهت عيون الجميع اليه منتظرين تبرير الاعتراض، فقال :

" في الواقع، أظرف شعراء العربية في هذا القرن، كان بلا منازع، هو الشاعر المغربي المراكشي الراحل (محمد بن ابراهيم) شاعر الحمراء .. "

وكنت أول من فوجيء بهذا التصريح، فلم أكن أعرف أن سمعة (ابن ابراهيم) وصلت إلى (مصر)، وتركت هذا الصدى كله. كنت أعرف عن طريق ما يتناقله أهل (مراكش) من طرائف عن زيارته الأدبية التاريخية إلى (مصر) في الثلاثينات، من مثل أن السيدة (أم كلثوم) أرادت مداعبته مرة، فقالت له : " رأيت وجهك في اللطائف المصورة " ـ وهي مجلة كانت تصدر آنذاك ـ فرد عليها في الحال : " وأنا رأيت اللطائف المصورة في وجهك ".

وحكايته مع أهل مجلس من

الظرفاء ترك فيه عباءته السوداء - السلهام المغربي - وقام للوضوء، فرسم أحدهم عليها وجه حمار بالطباشير. وحين عاد شاعر الحمراء، ورأى ذلك، والجميع ينتظرون رد فعله، سأل ببراءة : " من مسح وجهه في هذه العباءة ؟ ".

وكنت أعتقد، مما وصل إليّ من شعر (ابن ابراهيم) انه شعر مهلهل تقليدي، لا يستحق الاهتمام ... وأرهفت سمعي، وفتحت مسجلتي استعداداً للاستفادة والاستمتاع.

وأخذ الأديب الحافظ يحكي عن نوادر (ابن ابراهيم)، وينشدنا من أشعاره من الذاكرة أبياتاً ورباعيات وقصائد قصيرة في غاية الظرف ورقة الحس الفكاهي، وكان الشعر الذي يذكره يضحك له، وكأنه سمعه اللحظة يذكر أبياتاً في التشنيع والتنكيت على موظف من أصل أجنبي، جاهل فارغ ثقيل الدم، سريع الكلام، يخلط العربية بالتركية والفرنسية، فرضته على الشاعر ظروف زياراته (لمصر) في ذلك العهد ليتجسس عليه لحساب الانجليز وليعطيه صورة مشوهة عن مصر والمصريين وكان اسمه (مفضل).

قال الأديب الكبير :

" أول ما سمعته من (شاعر الحمراء)، هو هذه الأبيات التي عبر فيها عن ضيقه بسرعة كلام الرجل وفراغ ما يقوله :-

(مفضل) مستعجل
في الحكم والكلام
يقول في دقيقة
ما قلته في عام
كانما يعيش في
ضيق وفي زحام
لكنَّ ما يقوله
اقوى من الأوهام
كانما كلامه
نفخ على الأنام
لا تعجبوا فجسمه
زمر بلا لجام
كقربة منفوخة
تداس بالأقدام

وانطبعت ابتسامة استحسان واستزادة على وجوه الحاضرين، فشجعه ذلك على الاستمرار قال :

" وبعد مأدبة عشاء أجبره الموظف على حضورها في بيته، خرج الشاعر مغتاظاً من سخف الرجل، وأنشدني :

اراد أن يحظى مفضل بما
يرفع رأسه أمام العلما
فجمع الناس على مأدبة
وصار يفخر بما تعلما
فقرر المجتمعون أنه
اثقل خلق الله ظلاً ودماً

واستدرك قائلاً :

" ليس كل ما قاله الشاعر المراكشي في المتجسس عليه هجوا مباشراً .... ولم يكن يهجو لمجرد الهجو الصادر عن كراهية تشفٍ، بل كان هجاؤه ذكيا، هدفه النكتة والفكاهة، والرغبة في الاضحاك والإمتاع .. انظروا كيف ينزل في هذه الأبيات، بالرجل، بالتدريج إلى حضيض الجهل :

(مفضل) طلبوا منه أن يخط مقالة..

فلم يجبهم، فقالوا :
" بالله اكتب رسالة "
فلم يجبهم فقالوا :
" اقرأ علينا حوالة "
وحين لم يدر، قالوا :
" تبًا لَهُ ! لا أباله "
وعندها عينوه
أستاذ كرسي الجهالة "

وعلا ضحك الجماعة هذه المرة، وأقبلوا عليه، فقال :

" كان شاعر الحمراء يستطيع احتمال كل شيء الا ثقل الدم، وتفاهة العقل فكان أغلب ما قاله في مرافقه ينصب على هذه الأوصاف ... مثلا :

اتى محلل دم (مفضلا)
. فشكه بالمحقن المصاص
فانكسر المحقن في عروقه
فدمه أثقل من الرصاص

وانظروا إلى هذه الصورة الكاريكاتورية العجيبة في وصف ثقل ظله :

" لو أن ظله على
رأس مصارع سقط "
لسحق الرأس فظله
" كوابور الزلط "

وعلت القهقهات .. فقال الرجل السمين وبطنه يهتز طربا :

"لم تسمعوا شيئاً بعد ! انتبهوا إلى الحبكة القصصية الحوارية في هذه الأبيات الخمسة :

وجدته منبطحا
بباب بعض الأبنية
فقلت : " ما تفعل ؟ " قا
ل : " خدمتي هذى هيه "
فقلت : " ماهي ؟ " فقا
ل : " أن أكون زربية "
يمسح في الداخلو -
ن للمكان الاحذية
قلت : " هنيئا قد وجد "
ت " الحرفة المواتية "

وبعد عودة الهدوء استأنف :

" أرأيتم كيف أن مقاطيعه تكون وحدة متكاملة متماسكة، ولا تقوم على وحدة البيت. بل على وحدة الكلّ، ولا يمكن الوصول فيها إلى بيت القصيد إلا بقراءتها كاملة .. فالنكتة تأتي في البيت الأخير ، مثلا :

مفضل، بالرغم من خواه
وجهله ينفع من سواه
فكم من الأولاد في حارته
تعلموا الصفع على قفاه

وانتظر حتى تمر العاصفة، وأضاف :

" ولكني لا أعتقد أن العرب في جميع عصورها جاءت بمثل هذه الصورة الرائعة في وصف رجل فارغ .. ولابد أن اذكر هنا أن "مفضل" هذا كان يلبس نظارة .. قال (ابن ابراهيم) :

وحين غاب مرة
وصفه بلاغ
بانه نظارة
وخلفها فراغ

وفي نفس هذا المعنى قال :

وانصتوا لرأسه
فسمعوا صفارة
تنم عن فراغها
كانها مغارة

وحين كان يشبهه بحيوان بليد فقد كان قصده الأول والأخير اصطياد النكتة في التشبيه، لا الإهانة والتحقير

مثل قوله :

قال : " اسمه " مفضل
" وفضله كبير ... "
قلت : " على من فضلوا-
" ايها الخبير ؟ "
قال : " على حميرهم ..
فاحتجت الحمير "

" وكما في هذا البيت اليتيم

ظننت الحمار بليدا، فلما
عرفت «مفضّلا» غيرت رايى

" وعن سرعته في الكلام يقول في نفس الخط " :

عجبت لسرعته في الكلام
وما ليس يفهم من ثرثرة
الى أن عرفت من العلماء
واهل الحجى انه حشرة !

وأخذه السعال، واحمر وجهه وهو يضحك حى أشفقنا عليه - وما كاد يسترجع أنفاسه، حتى أخذ يسكتنا ليقول :

" هذه آخر واحدة .. وقد قالها في أواخر أيام زيارته حين بلغت روحه التراقى ضيقا بسخف المرافق :

ويوم عجن جسمه
لكي يصير بشرا
لم يجدوا في السوق ملـ
ـحا يشتري او سكرا
فجاء لا طعم له ..
كقطعة من .... "

وتوقف، فطلبت منه الجماعة اتمام البيت، ولكنه رفض ضاحكاً وهو يمسح عينيه : " كلكم شعراء، فكملوا من رؤوسكم ".

وفعلاً أتم البيت أحد الحاضرين ....

وبعد عودة الوقار الى المجس عقب الأديب الكبير :

" بقى الكثير مما لا يسمح المقام ولا يتسع المجال لذكره .. فهناك قصائد جميلة للشاعر (ابن ابراهيم) في الغزل، والتصوف، والحكمة، والوصف، والاخوانيات ... ولكن موضوع حديثنا كان الفكاهة في الأدب والشعر.

"وقد احتفظت لشاعر الحمراء بهذه الأشعار علما مني أنه لم يكن يسجلها استهتاراً منه بها - كان ينظمها في طريقه إلىَّ للتنفيس عن ضيقه أولا، ولإشراكي في محنته وتسليتي، لما لمسه فيَّ من ولع بالشعر الفكاهي واستعداد لتذوقه.

" وقد عبر عن ضيقه بهذا النوع من الشعر بقوله " :

اخرجني (مفضل)
عن عادتي المفضلة
قد كنت أهجو النابهين من عتاة الجهلة
مثل (ابي جهل) وجيش المشركين السفله
فصرت اهجو تافها
نكرة لا وزن له

وحضر وقت العشاء، فوقف الأديب الكبير، وقال :

" لن أذهب قبل أنشدكم أهجي ما قالته العرب في العصر الحديث، وأقسى ما سمعته - كمصري - تجري الفكاهة والخفة في دم شعبه :

لو قطرة من دمه
سالت في ماء (النيل)
لثقلت دماء اهـ
ـل (مصر) الف جيل !

وهما للشاعر (محمد بن ابراهيم) ....

ولم يقم أحد من ذلك المجلس دون أن يسلم بأن (محمد بن ابراهيم)، شاعر الحمراء، كان أظرف شعراء زمانه !..